

المستكشفون الأوروبيون للصحراء الجزائرية: ("جرهارم رولفن" و"أوسكار لانن" نموذجان)

أ. بن واز مصطفى

مثلت نهاية القرن (18م) وبداية القرن (19م) تحولا كبيرا في " أوروبا " نظرا لمعطيات سياسية، اقتصادية واجتماعية فرضتها التحولات التي عرفتتها هذه القارة في إطار نهضتها الكبرى، وتحولاتها الجذرية في مختلف المجالات.

تأتي أهمية هذا الموضوع في كونه يمثل الحلقة الأساس ضمن الآلية الاستعمارية العالمية لآسيا وأفريقيا ضمن التحولات الكبرى لأوروبا، مما جعل هذه منطقة إفريقيا محط انظار الأوروبيين بمختلف جنسياتهم. وباعتبار "الجزائر" جزء لا يتجزأ من هذه القارة بما وهبها الله من موقع جيواستراتيجي، وجدت نفسها في خضم توافد الأوروبيين وكانت الصحراء المنطقة الأبرز في عملية "الاستكشاف".

لقد كان استكشاف الصحراء تمهيدا لحركة استعمارية لم تبق ولم تذر، وقد فسحت المجال أمام فرنسا لاستغلال هذه الاستكشافات قصد خدمة أغراضها في الصحراء الجزائرية، مستثمرة وقتها وجهدها ورجالها وأموالها لتحقيق مآربها. لقد تعددت مشارب المستكشفين من جميع أنحاء أوروبا وتباينت جنسياتهم، وأمام كثرة عددهم، ارتأيت أن أقف عند أنموذجين أوروبيين غير

فرنسيين للتدليل على التنسيق الأوروبي في خدمة المصالح، علما أن الاستكشافات الفرنسية للصحراء الجزائرية قد أخذت حظها الوافر.

إن المتصفح مثلا للمكتبة الوطنية الفرنسية ليعثر على مئات المصادر حول الصحراء الجزائرية خاصة والعربية والافريقية عامة تعد بالآلاف، ولكن ولصعوبة تصفحها والإطلاع عليها، وقصد معرفة الواقع وقفت على نموذجين وهما "جرها رد رولفز" GERHARD Rohlf " و "أوسكار لانز" "OSKAR Lenz" واطلعت على بعض ما كتبنا في هذا المضمار، وباعتبارهما ينطلقان من مدرسة واحدة رغم أن الأول ألماني والثاني نمساوي، فإن القاسم المشترك هو التقارب الزمني بين الرحلتين وتكاملهما والخدمات الجلييلة التي قدماها من بعد للمستعمر الفرنسي.

فما هي الأهداف التي كانا يتوخاها هذان الرحالتان؟ وهل استطاعا تحقيقها؟؟

وللإجابة على هذه الإشكالية، سأسعى لتسليط الضوء على مراحل الرحلتين والوقوف على الإنجازات المحققة بالنسبة لهما.

وقد اعتمدت على كتاب "جرها رد رولفز" GERHARD Rohlf " " وأسفار واستكشافات في الصحراء" الجزء الأول والذي يوضح فيه رحلاته في كل من "درعا" "تافيلالت"، "الجنوب الوهراني"، "توات"، "تيديكلت".. وكان ذلك بين سنتي (1861/1864م).

أما بالنسبة لـ "أوسكار لانز" "OSKAR Lenz" فقد اعتمدت على كتابه "مسار من المغرب إلى السنغال عن طريق تمبكتو"، وكتاب "تيمكتو" سفر إلى المغرب والصحراء والسودان.

لم ينطلق الأوروبيون من فراغ، فقد تأسست عدة جمعيات بداية من منتصف القرن (19م)، وقد اعتبرت محضنا ومدرسة لهؤلاء المغامرين، وبالتالي تمت رحلات الألمان ما بين (1880/1850م)، وعملوا على إنشاء "الجمعية الإفريقية الألمانية" تأسيساً بما حققه البريطانيون في استكشاف الصحراء.

وقد تشكلت الجمعية الجغرافية في "برلين" (1828م) والتي بعثت بمستكشفين إلى مناطق من الصحراء الإفريقية، ومن الألمان الذين وطئت أقدامهم الصحراء الجزائرية: "جرها رد رولفز" "GERHARD Rohlfs" "أوسكار لانز" "OSKAR Lenz"، "إيروين فون باري" "Erwin Von Bary"، ولكن ستركز على الأولين نظراً للعلاقة التي ذكرتها آنفاً.

1- "جرها رد رولفز" "GERHARD Rohlfs": ألماني من مواليد (1832م) انضم إلى اللفيف الأجنبي ليغادره سنة (1861م)، وما بين (1864/1862م) حاول استكشاف الصحراء، لقد قام بأولى رحلاته باتجاه "المغرب الأقصى" لاستكشاف منطقة وادي "درعة" و"تافيلالت"¹.

وصل إلى "طنجة" في صائفة (1862م)، وفي (20 جويلية) اتجه إلى منطقة "سوس" جنوب "المغرب" عبر الشريط الساحلي متوغلاً في الصحراء المغربية نحو وادي "درعة" و "تافيلالت"، مما سهل عليه التوغل في المناطق الجزائرية الحدودية

حيث عبر منطقة "القنادسة" ثم "فجيج" وعبر منطقة "العين الصفراء" و "الشلالة" و "البيض" باتجاه الشمال الجزائري، ويبدو أن هذا المسار لم يأت من فراغ، حيث أنه يحاول البحث في المنطقة في كل ما يتعلق بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للاستفادة من جميع المعطيات قدر الامكان².

لقد فشلت محاولته الأولى، وهنا أتساءل ما هي الأسباب التي أدت إلى هذا الفشل؟ ولعل الجواب يرتبط بطول المسافة، وجهل الرجل لطبيعة المنطقة مناخيا وأمنيا، ويبدو أن الرجل قد حدد أهدافه، وأضحى صاحب مهمة، وبالتالي لم تنه جميع العقبات لتحقيق أهدافه، ورغم ذلك أعاد الكرة من جديد في رحلة جديدة إلى "تمبوكتو" عن طريق الصحراء الجزائرية في (أكتوبر 1863م)³، لكن ثورة "أولاد سيدي الشيخ" قطعت عليه الطريق حيث قام بتغييره متنقلا من "وهران" إلى "طنجة" أوائل شهر (فبراير 1864م) حيث اتجه إلى "تافيلالت" ثم إلى "توات" و "إيقللي" و "بني عباس" ثم "أدرار" ثم "عين صالح" التي وصلها في (17/09/1864م) ثم اتجه شرقا إلى "غدامس"⁴، وهكذا استطاع اختراق الصحراء باتجاهاتها المختلفة مسجلا ملاحظات عديدة واصفا الأماكن التي توقف بها مثل "عين صالح".

وللوقوف على نماذج للوصف الدقيق للصحراء من طرف "جرها رد رولفز" GERHARD Rohlfs خاصة حول "قصور الساورة" فيقول: "يبدو وادي غير "Guir" واسعا جدا وأعالیه البعيدة غير واضحة المعالم...وصلنا إلى "بردة" Berda" تقع في منطقة حيث يضيق وادي "غير" قبل أن يجتمع مع وادي

"زوزفانة" "Zouzfana" مكونين مع بعض وادي "الساورة" حيث دوار "أولاد سليمان" الذين يسكنون الوادي وهم جزء من قبيلة "ذوي منيع"⁵، فالرجل يصف الطبيعة، كما يصف مجرى الوادي وساكنيه بل يخبرنا عن طبيعة القبائل.

وهو يصف جو الصحراء خاصة وأنه وصل إلى "إقلي" "Igli"⁶ في (19 جويلية 1864م) وهو شهر حار جدا تتجاوز فيه الحرارة 40°، يقول عنها: "تقع على الضفة اليسرى لوادي الساورة، تحيط بها كثبان رملية، سكانها من الشلح..."، ويلاحظ أنه يحاول أن يوهم أن هؤلاء ليسوا بربراً وفي ذات الوقت يختلفون عن العرب!، وهنا أتساءل عن التصنيف الاثني من قبل هذا المستكشف، اذ يستعمل كلمة يختلفون، فهل يقصد بالاختلاف الطبيعي الذي وضعه الله في الناس؟ أم يقصد اختلاف العرق وما يترتب عن آثاره من عواقب وخيمة خاصة وأنه كان يسجل تقاريره، وليس من المستبعد أنه كان يبعثها إلى جهات معينة.

وعن وصفه لـ "بني عباس": "تقع فوق الهضاب بارتفاع خمسين متراً.. حيث تكثر الكثبان الرملية، وعدد سكانها لا يتجاوز 600 شخص، والبنائات بنيت بشكل جيد... لباسهم نظيف... يتحدثون "الشلحة"، ويبرز نخيلها وفواكهها المختلفة"⁷.

إنني ألاحظ التركيز على الجانب الزراعي (التربة والمياه وأنواع المحاصيل الزراعية) وكذلك الجانب العرقي واللسان.

لقد أضحت منطقة "بني عباس" مركز استقطاب للمسيحيين، وبالتالي مركز حركة تنصيرية في الصحراء الجزائرية وأفريقيا، مما يوحي بأن المستكشفين كانوا

أصحاب مهام مما مهد للاستعمار بجميع أبعاده ، إذ يمكننا اعتبارهم طليعة الاستعمار .

يواصل "جرها رد رولفز" GERHARD Rohlf's "رحلته نحو "كرزاز" ويقول عنها أنها عاصمة وادي "الساورة"، ليس فقط بعدد وغنى سكانها، ولكن لثقلها الديني من خلال زاوية "سيدي محمد بن علي"⁸، ويتحدث عن نفسه موضحا وسيلة التمويه التي استعملها للحفاظ على سلامته⁹، ويقول في هذا السياق: "إن شيخ الزاوية استقبلني على أنني من ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه و سلم لضمان سلامتي".

إن المتتبع لرحلته يلاحظ تلك الدقة في ذكر المناطق التي مر بها، ومن ذلك سرده لأهم قصور الضفة اليسرى لوادي "الساورة" وهي كما يلي: "تمنتيرت" و "ويدير" "بوحديد" و "أواتة" و "بوشلوف" و "أولاد درار" و "ولجة" و "عين فيل" و "أغداك" "ديادا" و "الماجة" و "قرزيم" و "بني شليف" و "توسوقت" و "الزاوية الكبيرة" "كرزاز" وإلى جنوب الأخيرة: "تيمودي"، "أولاد يحيى"، "أولاد نافع"، "لقصابي"¹⁰.

إن درجة الحرارة في الصيف تصل ليلا 25° ونهارا 40° في الظل، وتحت الشمس 60°.

ويعود للحديث عن "كرزاز" ليتحدث عن الوادي وجريانه وطريقة بناء البيوت ويتحدث عن مسجدها الكبير وعن طلائه وصومعته، وعن عدد سكان "كرزاز" البالغ 2000 نسمة¹¹.

ينهي "جرها رد رولفز" GERHARD Rohlf " حديثه وهو يواصل رحلته إلى "توات" حيث يتحدث عن كل صغيرة و كبيرة.

2- "أوسكار لانز" "OSKAR Lenz" (1880/1879م): مستكشف نمساوي من مواليد (1848م) بدأ حياته العلمية في معهد "الجيولوجيا" في "فيينا"، وقام برحلته الاستكشافية الأولى إلى "الغابون"¹²، توجه من "طنجة" إلى "فاس" في إطار تكليف من "الجمعية الإفريقية الألمانية"، حيث شرع للاستعداد لرحلة داخل "المغرب الأقصى" حيث رخص له السلطان "مولاي حسان" بعبور "المغرب"¹³، فخلال ثمانية أيام سير، وصل إلى "فاس" عبر وادي "المخازن" ثم "مكناس" ف "الرباط" و "مراكش" التي دخلها في (14 فبراير 1880م) حيث استعد للسفر نحو الجنوب¹⁴.

لقد انطلق من "مراكش"، وخوفا على نفسه اتخذ اسما لطبيب تركي مسلم وأضحى يدعى الحكيم "عمر بن علي".

استعان "لانز" بمترجم عربي من الجزائر يدعى "الحاج علي بو طالب" الذي ينحدر من عائلة الأمير عبد القادر، كما استعان بمترجم آخر إسباني الجنسية من تيطوان يسمى "كريستوبال بنيتز" Cristobal Benitez، يتقن العربية¹⁵.

بلغ وادي "سوس" ثم "تارودانت" حيث اتجه إلى وادي "درعة" ليصل بعد ذلك إلى "تندوف" والتي دخلها في (5 ماي 1880م)، قال فيها: "هذه المدينة الصغيرة الجميلة يسكنها عرب من قبيلة "تجاكانت". كان صديقي الشيخ "علي" هو مؤسسها، له مسكن جميل، و يحظى باحترام كبير من قبل أهلها، "تندوف"

التي لم تمر عليها بعد (30 سنة) من تأسيسها تتألف من مساكن كثيرة، محكمة البناء، لها عين عذبة، وبها عديد من بساتين النخيل والفواكه. وهي في بداية التطور، وتعد منطلقا للعديد من القوافل، ولها مستقبل زاهر. تقع في الصحراء الغربية في منطقة تدعى "الحمادة" وهي عبارة عن هضبة لا يزيد ارتفاعها عن مستوى سطح البحر (400) متر¹⁶.

غادر "لانز" "تندوف" في قافلة تتكون من مترجمين ودليل وخدم و تسع جمال حتى وصلت إلى وادي "تلي" في (29 ماي)، ثم واصل رحلته حتى وصل إلى "أروان" في (9 جوان) وهي مدينة تقع وسط الرمال يسكنها عرب من قبيلة "البراييش" وكذلك العديد من "الزنوج"¹⁷. في 26 جوان غادر أروان متوجها إلى تمبوكتو، حيث وصلها في 01 جويلية 1880م¹⁸.

وفي 17 جويلية سافر من تمبوكتو متجها نحو السنغال عبر بلاد بمبارا، إلى مدينة ساند لويس السنغالية، ومنها إلى أوروبا.

طوال سفره في الصحراء جمع "لانز" ملاحظاته الجغرافية والطبوغرافية، ثم خلص إلى القول: «... بأن الصحراء الغربية، ومن خلال الطريق الذي سلكته تمثل هضبة بارتفاع 280 م عن مستوى سطح البحر، وأن أقل ارتفاع هو 148م، سجلته بوادي تلي جنوب مدينة تاودين، وهو ما يتعارض مع مشروع لأحد الإنجليز الذين توقع جلب مياه المحيط الأطلسي إلى الصحراء»¹⁹.

ومن المشاريع التي شغلته مد خط حديدي عبر الصحراء. محاولا التعرف على أهم المعوقات التقنية و الصعوبات السياسية.

بعد إنهاء رحلته، وفي مداخلة له في "الجمعية الجغرافية" بباريس سنة 1881م، خلص إلى القول: « لإنجاز هذا المشروع وتجاوز الصعوبات، على فرنسا إحكام القبضة على المناطق الواقعة بين توات في الشمال وسيغو في الجنوب، أما الصعوبات التقنية فهي قليلة في المنطقة، وبالإمكان إنجاز خط حديدي عبر المناطق التي قطعتها».²⁰

رغم اختلاف الرجلين من حيث جنسياتهما، لكنهما اجتمعا على هدف واحد هو خدمة أوروبا، خاصة فرنسا التي استفادت من استكشافاتهما. ان الاستكشافات الأوروبية انطلقت بتصورات علمية وعملية امتدت إلى عمق افريقيا مازلنا نشهد تداعياتها السلبية في مختلف المجالات السياسية، الأمنية والاقتصادية.

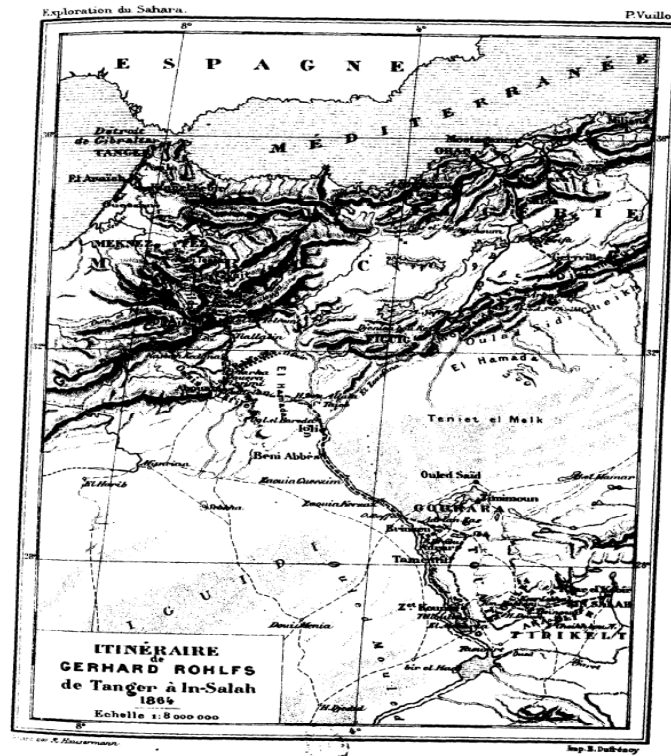
خاتمة

لقد اهتم المبعوثون الأوروبيون بالدراسات الإنسانية (الأنثروبولوجيا، التاريخ والآثار) كما اهتموا بالدراسات العلمية فتعرفوا على طبيعة الأرض والتضاريس والمناخ، وأجروا بحوثا طوبوغرافية، كما أحصوا مصادر المياه وانتقلوا من النظري إلى التطبيقي، فبدأ التفكير في العديد من المشاريع الاقتصادية خاصة التجارية منها، وكذا تطوير وسائل النقل، كما سعى هؤلاء المستكشفون إلى إنشاء مدارس وفروع لـ "جمعية الآباء البيض" (قساوسة و رهبان) بغية التنصير خاصة في أواسط افريقية وكل ذلك بمثابة الإعداد لعملية الاحتلال الفرنسي لـ "الجزائر".

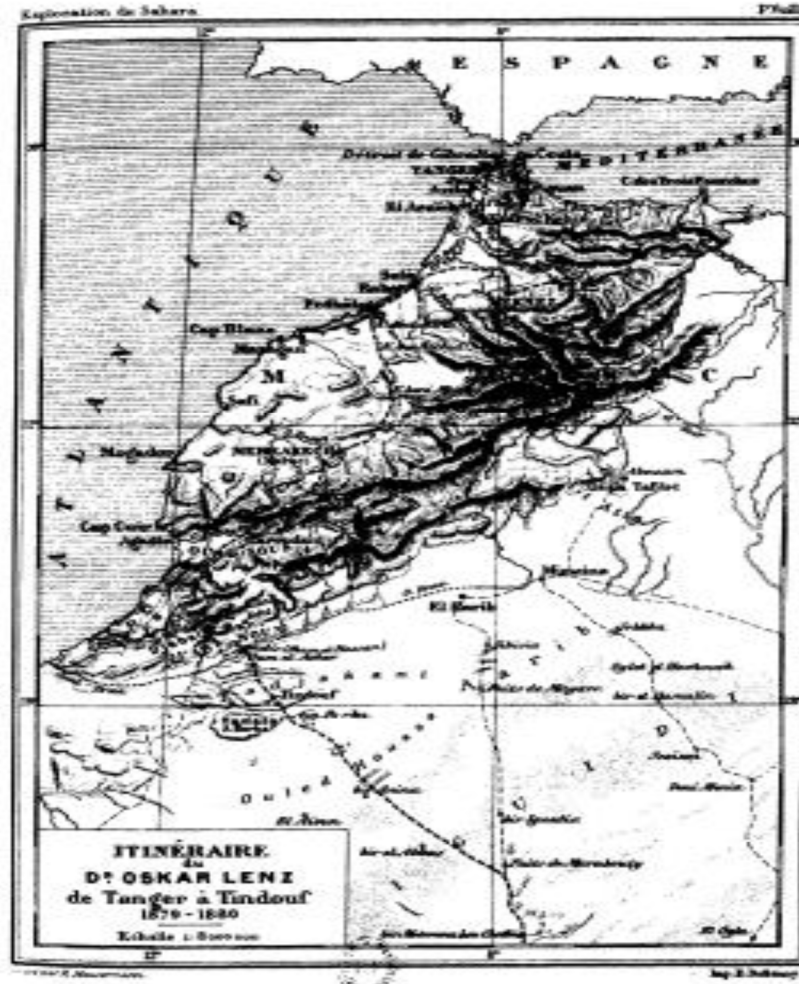
لقد لعبت الجمعيات الجغرافية دورا كبيرا في حركة الاستكشاف بدعم من "باريس" و "لندن" و "برلين"، و لذلك سعى هؤلاء المستكشفون لتعلم اللغة العربية ليسهل عليهم التخاطب مع أهل الصحراء، إذ أن الكثيرين منهم استعانوا بأدلاء كما أن بعضهم مات بسبب الحر، و التعب، و منهم من تم اغتياله بعد اكتشاف حقيقته.

إن المستكشفين "جيرها رد رولفز" و "أوسكار لانز" وإن اختلفا في الفترة الزمنية والتي كانت متقاربة فقد اجتمعا على تشخيص الصحراء ومعرفة خباياها، إذ ندرك أن هذين الرجلين ومثل بقية المستكشفين كانا من أصحاب المهام الذين بذلوا ما في وسعهم لتمكين الاستعمار في "الجزائر" ومنها إلى بقية "أفريقيا"، كما يلاحظ طريقتهم في الوصف والتركيز على ما يبدو لنا تافها في جميع المجالات، كما أنهما سعيًا لتغيير اسميهما لتحقيق مآرب الحركة الاستعمارية.

ولئن كانت أعمال المستكشفين وبحوثهم تصب لصالحهم، فما المانع من استثمارها اليوم فيم يعود بالنفع على البلاد والعباد؟؟.

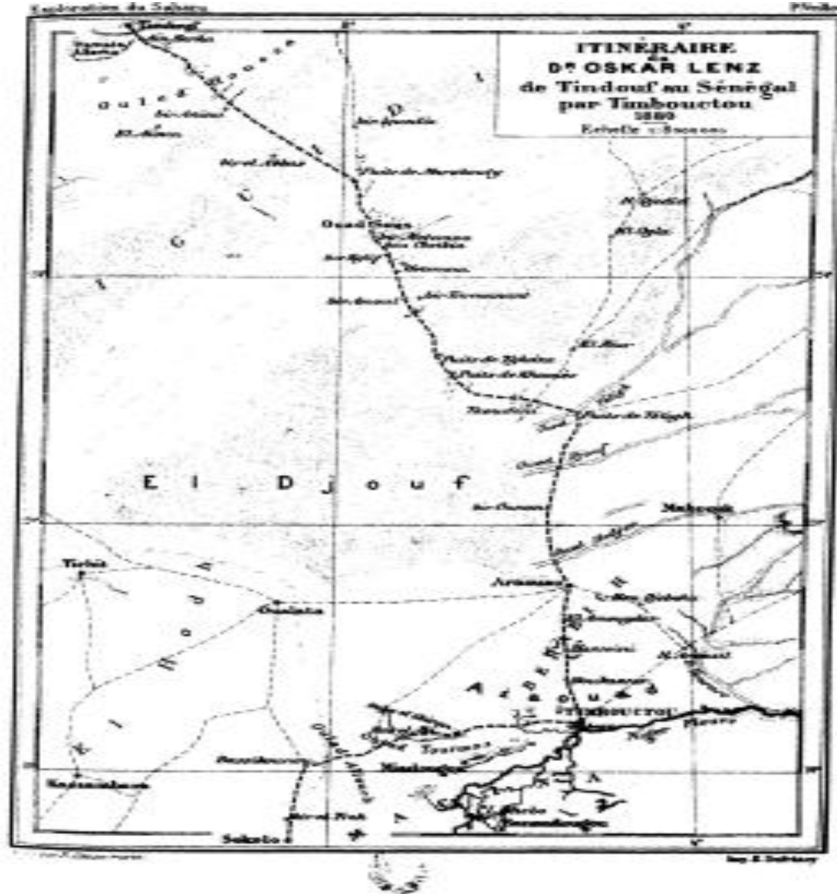


خريطة توضح مسار "جرهارد رولفز" من "طنجة" إلى "عين صالح" "1884"
p. Viullot. L'exploration du Sahara, étude historique et
géographique .p101



خريطة توضح مسار "أوسكار لانز" من "طنجة" إلى "تندوف"
(1880/1879)

p. Viullot. L'exploration du Sahara, étude historique et géographique .p156



خريطة توضح مسار "أوسكار لانز" من "تندوف" إلى "سنغال" عن طريق "تمبكتو" (1879)

p. viullot. L'exploration du Sahara, étude historique et géographique .p16

الهوامش

1. GERHARD Rohlfs: voyages & explorations au Sahara , tome 1, édition sous l'égide du centre d'études sur l'histoire du Sahara. Karthala , pp.10-11. Et voir aussi:
-P. viullot. L'exploration du Sahara, étude historique et géographique , PARIS, Augustin Chalamel edition librairie coloniale , 1895.p94.
2. GERHARD Rohlfs :Op, Cit. p98
3. Ibid. p98
4. Gerhard Rohlfs: "Voyage à travers le Maroc, la pente de nuit de la grand Atlas, éditeur de l'J.Kuhtmann Buchhaudlung, Brême, 1868. PP.1-32.
5. Ibid. pp184-185.
6. P. viullot, Op, Cit.pp101-102.
7. GERHARD Rohlfs: Op, Cit. pp.186-188.
8. Ibid. p188.
9. Ibid, Cit. p.188.
10. Ibid. p.188.
11. Ibid. pp189-191.et aussi :
- P. Viullot, Op, Cit.pp103.
12. إسماعيل العربي، مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى"، الثقافة ، العدد 62، مارس و أبريل، الجزائر، 1981، ص 322.

13. Oscar Lenz : "Itinéraire du Maroc au Sénégal par Tombouctou", B.S.G, de Paris.7 séries .T 1, 1881 .P . 199 .
Et voir aussi:
 - P. Viullot, Op, Cit.pp153.
14. Oscar Lenz. Op, Cit. pp 200-203.
15. Ibid. p204
16. Ibid. p209.voir aussi :
 - Oscar Lenz. TIMBOUCTOU , Voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan, traduit par :Pierre Lehautcourt , tome2, Paris, Librairie hachette, 1887.pp.33-39.
 - P. Viullot, Op, Cit.pp158.
17. Oscar Lenz. Op, Cit. 210-212.
18. - Ibid, PP. 215 -219.
19. Ibid, PP. 224 -225.
20. - Ibid, P. 225.

المجلة الجزائرية للمخطوطات _____ العدد : 11 / 2014م